التاريخ والأسطورة فى الرواية

أنتونى برجس

تقديم: تمثل هذه المقالة للناقد الإنجليزى «أنتونى برجس» (Anthony Burgess) أحد فصول كتابه الهام «الرواية اليوم» (The Novel Now)، الذى ظهر فى لندن سنة ١٩٧١ .. والمقالة لاتوضّح الفرق بين موضوعات التاريخ وموضوعات الأسطورة، بشكل يُوحى بأنه أراد فقط أن يتحدث عن توظيف الموضوعات القديمة فى الرواية التاريخية؛ وعلى هذا فإن الناقد يحاول بصفة عامة أن يوضح الملامح العامة للرواية التاريخية؛ وعلى هذا فإن الناقد يحاول بصفة عامة أن يوضح الملامح العامة التاريخية فى إنجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا.. كما يذكر أن بعض الكاتبات يتفوقن فى مجال الرواية التاريخية.

وفى رأيى أن المرأة تستطيع أن تتفوق فى مجالى الرواية التاريخية والبوليسية. وأظن أن شهرة الروائية البوليسية أجاثا كريستى غنية عن التعريف، فقد تُرجمت معظم رواياتها إلى لغات كثيرة وقدمت فى السينما أكثر من مرة. ولعل السبب فى ذلك يمكن أن يُرد إلى أن «المادة الخام» بالنسبة لرواية تاريخية أو بوليسية شىء جاهز ومعد من قبل، وإذا احتاج إلى إعداد فهو أمر يَسيرٌ.. ويبقى على المرأة – وما تمتع به حساسية ورهافة – أن تقدم مادة منظمة بأسلوب غير منظم، يقوم على التشويق والغموض والمفاجأة.

ويشير الناقد من خلال هذه المقالة أيضا إلى أن كل روائى – بالضرورة – يحاول أن يتمثل مرحلة تاريخية معينة فيما يكتب.. وأن هناك بعض كتاب الرواية التاريخية يقدمون اتاريخ كما هو، دون أية إضافة، والبعض الآخر يحملون الماضى وجهة نظر معاصرة، وغير ذلك من الأمور المختلفة التى بها يقدِّم بها الروائى مادته التاريخية كما تخيلها. كما يوضح الناقد رأيا جريئا بالنسبة لكتابة الرواية التاريخية – وإنْ كان هذا ينسحبُ أيضا على الرواية البوليسية – وهو أنها قد تكون وسيلة سهلة لكسب العيش عند أديب متواضع القدرات.

كما يزعمُ المؤلف أن كتابة رواية تاريخية أمر من الصعوبة بمكان، بدرجة يمكن معها أن تكون كتابة الرواية المعاصرة أسهل بكثير من الرواية التاريخية. وهذا أمر فيما أرى لا ينصف أيا من النوعين القصصيين: التاريخى والاجتماعى، حتى يصبح عملا أدبيا خالدا، فالعمل الجيد بطريقة تناوله.. وليس بالموضوع الذى يشكل مادته.

ومن الآراء الذكية التى يشير إليها أنتونى برجس فى هذه المقالة أيضا هو أن **الرواية التاريخية الروسية أفضل** من حيث المادة والكيف من الروايات الإنجليزية لتاريخية، وهو يرد ذلك إلى أن تاريخ روسيا نفسه أكثر زخما بالأحداث عن تاريخ إنجلترا، مما يجعل تاريخ روسيا أقدر على إلهام فن روائى تاريخى عظيم.

وهذه أيضا وجهة نظر لها ما يبررها عند الناقد.. وإن كنا نرى أن الأمر فى الرواية التاريخية ليس مرتهنا بطبيعة التاريخ، بقدر ما هو معتمد على عبقرية الكاتب، فكل عمل أدبى لكى يكون خالدا، لابد أن تكون وراءه قدرة فنية أصيلة.

* * *

التاريخ والأسطورة فى الرواية

واحد من الميادين التى تتفوق فيها المرأة الروائية هو الرواية التاريخية (The Historical Novel). وقد يشك المرء فيما إذا كانت الكاتبات يتفوقن فيها أفضل من الرجال، رغم أن أكثر الروايات التاريخية شعبية فى العصر الحديث قد كتبتها نساء مثل «ذهب مع الريح» التى ألفتها «مارجريت ميشيل» و «أمير إلى الأسد» التى كتبتها «كاثلين ونسر». وربما يكون من غير العدل أن تُذكر هاتان الروايتان فى سياق واحد، حيث أن الأولى تذكرنا بالحرب الأهلية الضارية فى أمريكا، بينما الثانية تقدم صورة ساخرة للحياة المضطربة فى إنجلترا أثناء استرجاع الملكية. ولكن بعيدا عن المميزات (سواء أكانت مطلقة أو مقارنة)، فإن الروائيات التاريخيات قد أظهرن شجاعة أو اندفاعا فى كشف ماض، كان الرجال فقط يستطيعون أن ينظروا إليه نظرة تعاطف أو غضب. إن هذه الجرأة النسائية فى تصوير التاريخ – ربما تنبع من إيمانهن الراسخ بأن الحياة لا تتغير كثيرا، وأن الخوض فى عمق التاريخ هو من أجل إيجاد بديل

للحاضر فقط. وعلى أى حال فإن وظيفة المرأة وحالتها قد مرتا بتغيرات طفيفة عبر القرون: فالرجال يحلمون أحلاما جديدة، ويلعبون بطرق جديدة، ويتكلمون أيضا حوارا جديدا، ولكن النساء تظل دائما عشيقات وزوجات وأمهات. ومن أجل التحقق من هذا علينا أن نقابل بين زوجة «تشوسر» ومربية «جولييت» فى مسرحية شكسبير، والسيدة «جاب» فى قصة «صمويل باتلر» لنعرف أنه طرأ تغيير طفيف على قاموسها وأسلوبها خلال خمسة قرون، إن المرأة قادرة على التغير، غير أن الرجل هو الذى يغيرها.

وقد دفع لاعتقاد – بأن التاريخ ليس سوى ثوب هُلامى (Fancy Dress) – بعض الروائيات لأن يكتبن أكثر الروايات التاريخية خصوبة فى الخيال – مثل السلسلة اللامتناهية لروايات جورجيان «لجورجيت هاير» أو قبل ذلك قصص البارونة «أوركزى» عن «الزهرة انقرمزية» – لأن الحاسة الطبيعية من الجائز إذا أضيفت إلى عقل دارس متخصص، يمكن أن تنتج عملا مميزا مثل قصة هيلين واديل (Peter Abelard) أو قصة براهير التى تصور الحياة فى بريطانيا القديمة.

وأما بالنسبة للرواية التاريخية الجادة، فإننا نعتقد أن مشاكل المرأة ليست مختلفة عن مشاكل الرجل، فكلاهما يواجه نفس السلسلة من الصراعات، ويوازن الحقيقة بالخيال والدراسة بالمتعة.

ولكن.. لم يشغل الروائى نفسه بالماضى فى حين أن هناك الكثير من القضايا فى الحاضر، يجب أن يشغل نفسه بها؟ هناك إجابة واحدة بدون مراوغة: إن الحاضر ليس إلا خيطا رفيعا فقط يربط بين الماضى والمستقبل، وبما أن المستقبل لم يأت بعد إلى حيِّز الوجود، لذلك لا نملك إلا الماضى لنكتب عنه. ومن الطبيعى إلى حد ما أن كل روائى – فى الحقيقة – روائى تاريخى.

ولكن إذ' أخذنا مصطلح (تاريخى) بمعناه المدرسى – والذى يشير إلى ماضٍ ذهب من زمان طويل، إنه الماضى الذى يجب على الكاتب وبنفس القدر على القارىء أن يتعلماه ليستفيدا منه – فإننا بعدئذٍ نستطيع إيجاد إجابة مناسبة وأكثر فائدة. إن الروائى التاريخى هو فى الحقيقة مؤرخ ليست لديه حساسية مؤقتة لتذوق التاريخ، وإنما هو روائى اكتسب موهبة الخيال القصصى للتاريخ بصفة عامة.

إن معظم الروائيين الذين يهتمون بالعصر الذى يعيشون بأنفسهم فيه، قد أخضعوا خيالهم القصصى لفترات طويلة مضت، فقد كتب «آرثر كوستلر» رواية (الجلادون) (The Gladiators)، التى تصور ثورة العبيد فى روما القديمة. وكتبت إفلين ووف رواية «هلينا» (Helena) التى تصور اكتشاف الصليب الحقيقى بواسطة أم الامبراطور قسطنطين.

وكتب وليم جولدنج رواية «القمة» (The Spire)، التى تصور إنجلترا فى العصور الوسطى، كما عاد بروايته «الورثة» (The Inheritors) إلى فترات ما قبل التاريخ. وعلى هذا فإن الدافع عند الروائيين كان تنوير الماضى وكشفه، أكثر من توضيح بعض المبادىء السياسية أو الدينية أو الأخلاقية باستخدام تكنيك الاغتراب (Alienation)، وتقديم نظرة جديدة عن طريق موقف قديم (قد يكون غريبا). ولكن الماضى والمستقبل أو الأسطورة تؤثر كلها على نفس المستوى: فروما فى رواية كوستلر، والمزارع التى تديرها الحيوانات فى حكايات «أورول» الخرافية، ليست سوى رؤية لإنجلترا سنة ١٩٤٨ ، وهذا ليس هو الطريق الحقيقى للروائى التاريخى.

ويحضر فى الذهن على الفور الكاتب «روبرت جريفز» كمثال حقيقى لكاتب الذى يستعيد الماضى من أجل الماضى فقط، وليس من أجل تقديم موعظة للجيل المعاصر. ولأنه كان فى الأصل شاعرا، ثم تحول إلى الرواية التاريخية كوسيلة لكسب العيش، لذلك نحس فى بعض رواياته مذاق الصنعة، إن أسلوبه فى تقديم حكاية رومانية من الماضى هو أن يأتى بسرد بسيط عن طريق شاهد عيان خيالى للأحداث التاريخية الموصوفة. وكما فى رواية «كلوديوس» نجد أن هذا الشاهد هو الراوى الريسى، وليس هناك محاولة لإشراك السحر أو لجعل الماضى البعيد ملونا بالماضى الذى اختاره. وقد تكون «الملك والمسيح» و «زوجة للسيِّد ميلتون» هما أكثر روايات جريفز التاريخية إعجازا، حيث إن الأولى محاولة جريئة لإعادة قص بعض حكايات الإنجيل من وجهة نظر بعض معاصرى السيد المسيح، مؤكدة حق المسيح الدنيوى فى تاج ايهود ممارسا للمعجزات، ومحاولا – دون جدوى – أن يفجر ما فوق الطبيعة.

إن رواية «زوجة ميلتون» قد كُتبتْ من أجل تصوير دور هذا الثائر لكبير بطلا للحرية فى بريطانيا، أكثر منه طاغية عائليا، يبدو فى عينى زوجته الأولى مثيرا للضحك.

إن هذه الصعوبة التى تصادف من يكتب عن ماض إنجلترا سواء: ليرسم صورة للماضى البعيد لها أو يقدم مغامرة كما تفعل أفلام هوليود، فإنه يستخدم لغة معاصرة.. وهذه الصعوبة هى ما فعله جريفز باقتدار. إن مارى بادل الزوجة تحكى الرواية كما لو كانت نموذجا لأنثى لازمانية (Timeless Feminine) تبدو مقبولة لعصرنا أكثر من أيامها، على الرغم من أن هذه الرواية مكتوبة بطريقة القرن السابع عشرة،وهى طريقة الخطابات والمذكرات. وإن كانت رواية «دافيدكوت» «الزميل يعقوب» التى تعد من أحسن روايات هذه الفترة – تتخذ طريقا آخر، إذ تصور الحرب الأهلية فى العصور الوسطى من خلال مرآة القرن العشرين، لكن النتيجة مقنعة للغاية، حيث نجد فى الرواية رائحة عصر جمهورية كرومويل.

وهناك روائى آخر من الذين صوروا الماضى بشكل منتظم، هو «ألفريد دوجان» الذى حصر اهتمامه فى عصور الظلام وروما القديمة، فقد جذبته هذه الفترة الانتقالية رغم أنه ليس لها وثائق كثيرة. ومن أحسن رواياته التاريخية: ضمير الملك – النمور والزنابق – صحبة الثلاثة – تأسيس الآباء – مكر اليمامة – هوى اللورد جيوفرى، وعلى يديه المشهود لهما بالبراعة تحولت الرواية التاريخية إلى عمل روتينى لكسب العيش، ويشعر المرء غالبا أن رودجان لم يكن مسوقا بنوع من الضرورة لكى يعيد إحياء الماضى، وإنما كان مجرد قاص تغمره السعادة بما لديه من معلومات تاريخية، كافية لإنتاج كتاب كل عام. ولكن منذ وفاته – التى لم تأت فى موعدها – افتقدنا ذلك القلم المشغول بلكتابة، وربما كان هو الروائى التاريخى الوحيد المحترف الذى شهده الأدب الحديث، باستثناء الروائية التاريخية الفرنسية.. «زوى أولدينبرج»، فعملها معروف بدرجة كافية فى إنجلترا وأمريكا، حيث ترجمت بعض رواياتها إلى الإنجليزية. وقد اهتمت هذه الكاتبة بتصوير حركة الإقطاع الكنسى فى فرنسا أثناء العصور الوسطى، فروايتها.. «مصير النار»؛ تسجيل متحرك وأحيانا مُدهش لمطاردة هذه العصابات المتزمتة، التى كانت تشكل قطاعا من المجتمع، يرى العالم كما لو كان صراعا دائما بين الله والشيطان (Devil) ، وليس كبشر طيبين قد تكون فيهم نوازع شر، لقد كان هذا العالم متهما بعبادة الشيطان تحت سلطان هؤلاء الأرثوذكس المتشددين.

وهناك كاتب آخر هو «بيترجرين» – الذى عرف من قبل كمترجم – كتب روايتين تاريخيتين جيدتين هما «سيف السعادة» التى تقدم تصويرا حيا لحياة «سولا» (Sulla)،

ورواية «ضحك أفروديت»، وهى رواية نابضة بالحياة مثل بطلتها شاعرة ليسبوسى «سافو». ومن الجدير بالذكر أن انجذاب الروائيين الدائم إلى روما القديمة أو اليونان سوف يُفضى إلى ما هو أبعد من التاريخ المسجل.

«مارى رينو» روائية تكتب عن الحياة المعاصرة، لكنها فى رواية «آخر النبيذ» عادت إلى تصوير حياة القرن الخامس فى أثينا وشخصيته «سقراط». وما قدمته فى رواية «الملك يجب أن يموت»، و «ثور من البحر» يعد صورة أكثر حداثة للبطل الأسطورى (Mythical Hero) «ثيزوس» – ويبدو أن هدف هاتين الروايتين هو إيجاد الحجج المقنعة لدراسة الأنثروبولوجى فى أسطورة المينوتوروذبح ثيزيوس له، تماما مثل ما فعل «هنرى تريس» فى محاولته الرائعة «جاسون» التى تستعيد رواية حكايات الأشباح فى مغامرات الأرجوناتس (Argonats).

أما بالنسبة للروايات التاريخية الأمريكية فليس من العدل أن نفكر فيها فقط، من حيث أنها تسجل أحسن المبيعات ضخامة عن روايات تحلم بأوربا العظيمة الفخمة أو تحتفل ببؤس الحرب الأهلية وأمجادها. وهناك شاب أكاديمى أمريكى هو «جون بارت» الذى كتب رواية تقع فى ثمانى مائة صفحة وسماها «بائع دخان» (The Sot-Weed Factor) (وهذا هو الاسم الأمريكى القديم لتاجر الدخان). وهذه الرواية قد خلقت شيئا أصيلا فى مجال الرواية التاريخية. وكما يذكر الناقد الأمريكى «ليسلى أ. فيدلر» أن بارت حتى فى رواياته التى تعالج التاريخ المعاصر، يُعطينا الخيال ذا التأثير الغريب، لأنه يصوره معتمدا على الوثائق التى اختارها بدقة وترجمها بحرية، إنه لم يجد فى التاريخ مجرد الحقيقة أو الحرية كلها فى الواقع.. لكنه وجد فيه العبثية أو اللامعقولية (Absurdity)، وهذا أمر يتطلب قدرا من الشجاعة، لتكون جامعيا وتسخر من الدراسة الجامعية.

إن كتاب بارت يحكى مغامرات شاب قبيح يدعى «ابنزركوك»، أتى إلى أمريكا فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر كشاعر رسمى لحاكم مارى لاند، وقد ارتبط شعره فقط بالموضوعات المألوفة لتاريخ المستعمرات السياسى المبكر، وهى: السياسة – الدين – الجنس – الحرب مع المواطنين الأصليين. إن كثيرا مما يقدمه عبارة عن تقليد (Parody) للمحتوى المعتاد للقصص التاريخية الشعبية: كأن يكتشف شقيق وشقيقته كل

منهما الآخر فى لحظة الاغتصاب، أو أن يكتشف رجل هندى وآخر أبيض أن لهما أبا واحدا. إن المصادر الإنجليزية للقرن السابع عشر منتشرة لحسن الحظ على قدر كبير من العلمية (Pseudo) وغير المسجلة تاريخيا من خلال جنون الحبكة الروائية، ولنا أن نتخيل إذا ما تكلمنا عن أحد لنرى ماذا يعنى بناء وطن جديد؟ وإنه من العجب أن يتم هذا عن طريق تكتيك عاصف ومن خلال التركيز المتعمد على نطاق صغير جدا من أمريكا هو طريق روشستر فى مارى لاند.

أما عن الرواية التاريخية فى بريطانيا فربما كان الطابع المتحقق فيها مثل روايات – بارت مع ملاحظة أن هذا النوع – فى إنجلترا – أكثر قِدماً بدرجة قد لا يثير فيها تعجبهم، فقد كان هناك حين من الدهر بدا فيه أن الروايات العظيمة أو القصص التاريخية الناجحة يمكن أن تكتب عن الإمبراطورية البريطانية، ولكن موهبة بارت كانت فى الشعر والقصة القصيرة، لذا فقد ضاعت الفرصة ليكتب رواية تاريخية.

وعندما يُعيد الإنسان قراءة رواية «تولستوى» العظيمة «الحرب والسلام» فإنه لا يكون سعيدا بما فعله الروائيون مع المراحل الكلاسيكية البعيدة، وعندما ظهرت رواية «بوريس باسترناك» «دكتور زيفاجو»، ورغم غضب الاتحاد السوفيتى. فقد ساد العجب حول ما إذا كان فشل بريطانيا الحديثة فى إيجاد فكرة قصصية عظيمة، قد يرجع إلى تاريخ إنجلترا نفسه وليس إلى الأعمال الخيالية التى سجلت هذا التاريخ، فبريطانيا لم يغزها نابليون ولم تكن لديها ثورة عارمة مثل ثورة سنة ١٩١٧ فى روسيا. وربما نجد فيما سبق ذكره تعليلا تاريخيا للفن الذى أنجزته. إن رواية دكتور زيفاجو تعكس فنا عظيما، فهى تصور فشل ثورة ١٩١٧ فى روسيا، ولكن ليس بالأسلوب البسيط الذى يزعم السوفييت فهمه، وهو أن تصور الأمور على أنها أبيض وأسود فى الكتاب. إن زيفاجو البطل يعرف أن هذا الفشل للثورة أكثر نبلا من الرفض القاطع لمحاولة إعادة بناء مجتمع إنسانى، ومن هذه الزاوية فإن الكتاب مع السوفييت وضد الغرب. إن تفاؤل باسترناك أعمق وأكثر إنسانية من الكتابات الرسمية، حيث أنها تقوم على معرفة واضحة لما يستطيع الفرد عمله فى مواجهة المواقف الغريبة والمستحيلة، حيث إن الأمل ينبع من داخل الفشل. ولكن هذا تمجيد للفرد وخلق نموذج خاص لبطل القرن العشرين الذى ضاق ومازال يضيق بالمتزمتين. إن التطلع نحو المستقبل عند دكتور زيفاجو ليس عنصرا منفصلا، ولكنه يتحرك فى الرواية من خلال شخصية شاعر، يمثل الفردية الواضحة –

ويغني ملحمة كفاح. إن زيفاجو طبيب وعضو مفيد فى المجتمع رغم كونه غير معروف، وهو أيضا شاعر، ومن أجل – أنه يعارض المجتمع – يطالب هذا المجتمع بأن من حقه أن ينظر إليه، ويستمع له، ويكون دائما فى الحسبان.

وهذه الفكرة – التى تقوم عليها الرواية – مناهضة للشمولية وضد الجماعية (Anti-Collectivist)، وهذا مبرر كاف للمضايقة والرفض فى روسيا، وبسبب معتقداتها الصارمة فقد أنكرت روسيا على نفسها المجد الذى تضفيه أعظم رواية تاريخية فى هذا العصر.

وربما ينبغى أن تدور الروايات التاريخية الهامة دائما عن أفراد مشهورين، وليس عن مجرد تسجيل الحس أو الرائحة أو الوثائق أو الفلسفة الخاصة بعصر مضى. إن رواية إيريس ماردوك عن إيرلندا فى عيد استقلالها – «الأحمر والأخضر» تفتقد البطل العملاق (Mammoth Hero)، وهذا ما لا نجده فى روايات جريفز، أو تمى الروايات الروسية العظيمة. وبمعنى آخر **فإن الرواية التاريخية تتشكل فى أحسن حالاتها عندما تصور سيرة حياة متخيلة.. بعيدة عن الأصل المستمدة منه.**

وإن كان هذا لا ينفى أن هناك طريقة أسهل وأكثر شعبية عند بعض الكتاب العظام من الرجال والنساء.. وهذه الطريقة السهلة – فى كتابة الرواية التاريخية – تقوم على **تقديم سيرة الفرد بطريقة عادية مستعينة بالوثائق والخطابات، لكى تترك المادة تتكلم عن نفسها وبكلماتها هى.**

وحين يريد الكاتب أن يكون روائيا جريئا، فإن عليه أن يحاول إعادة خلق سيرة السيد المسيح وبوذا أو وليم شكسبير فى ذروة مجدهم المقنع فنيا بما يصورهم عليه. وسوف تكتشف إذا ما قدمت شكسبير فى رواية أن هذا الشاعر العظيم قد نزل إلى مكانة الرجل العادى، وقد أطلقت على روايتى عن شكسبير «لا شىء مثل الشمس»، لكى أؤكد استحالة توصيل الحقائق المعروفة فى سيرة الإنسان المؤلف عنه، كما هى معروفة بنفس الكيفية. **إن الروايات التاريخية (أو السير التاريخية) العظيمة قليلة جدا إذا ماقيست بحجم تخيل الأحداث التاريخية العظيمة**[١]. إنه من الأسلم أن

---

(١) المؤلف يقصد أن كتابة الرواية التاريخية أصعب من كتابة الرواية العادية.. التى تدور فى زمن معاصر.

تتخيل الأحداث التاريخية البسيطة مقترنة برجالها العاديين البسطاء، أو أن نفكر فى بعث الحقيقة الكامنة خلف الأسطورة.. فهذا أفضل من أن نتوقف عند الرجال الذين يعطون للتاريخ معناه.

وحتى تولستوى فإنه صوَّر نابيلون فى روايته - الحرب والسلام - رجلا صغيرا تحطمه وتبتلعه البطلة الحقيقية، وهى روسيا. كما أنه لكى تجعل من شاعر عظيم بطلا لرواية، فيجب أن تكون أنت نفسك شاعرا كبيرا، وهذا هو ما يجعلنا نقرر أن دكتور زيفاجو نوع من الروايات يندر أن يأتى مثيل له. **وإننا نعترف فى النهاية بأن هناك روايات تاريخية عظيمة ينبغى أن تُكتب.. ولكن الصعوبة تنحصر فى إيجاد من يكتبها.!!**[1].

* * *

(١) نشرت هذه المقالة المترجمة فى مجلة «الثقافة» - القاهرة، يوليو ١٩٨٣ .